رحلة امرئ القيس إلى بيزنطة

عبد السلام محمد الكيلاني*

مقدمة

كانت الظروف مهيأة لتجعل من الذهاب إلى بيزنطة محاولة يمكن أن يكتب لها النجاح، فالعلاقات متوترة بين بيزنطة وفارس والمناوشات مستمرة بين ممثلي الدولتين–الحيرة والغساسنة– في شمال الجزيرة، وكندة عدو لدود للحيرة منذ لاحق المنذر الثالث امرأ القيس في كل مكان، ومنذ أن طرد بمعاونة الفرس، جده من الحيرة، وقتل أهله وذويه، وكندة وضواحيها في وسط الجزيرة يمكن أن تكون خطراً داهماً يهدد لحيرة[1]، وقد امتد عهدها من نحو سنة 450 إلى نحو سنة 540 م[2].

واستجابة لهذه الدواعي رأى امرؤ القيس أن يذهب بنفسه إلى قيصر، معولاً عليه في إعانته على استرداد ملك آبائه، ولست متأكدا هل الاتجاه إلى بيزنطة والاستعانة بقيصرها من أفكار امرئ القيس أو اقتراحاً من مجيره عمرو بن جابر بن مازن الفزاري وقوَّاهُ الحارث الغساني؟[3].

رحل امرؤ القيس إلى بيزنطة رفقة عمرو بن قميئة الشاعر من بني قيس ابن ثعلبة أحد حجاب أبيه – أو خدمه – كما تقول بعض الروايات وذكر امرؤ القيس في شعر الرحلة:

أَرى أمَّ عَمْرٍو دُمْعُها قدْ تَحَدَّرَا ∴ بُكَاء عَلَى عَمْرٍو وَما كَانَ أَصْبَرَا[4].

وكان معه جابر بن حني التغلبي، وذكر في شعر هو الآخر.

فإمَّا تَرَيْني في رِحَالةِ جَابرٍ ∴ عَلَى حَرَجٍ،كَالْقَرِّ تَخْفِقُ أكفاني[5].

وخرج معه الحارث بن حبيبٍ السلمي، والذي وفاه أجله في الطريق قريباً من بصرى في ديار الشام، وبكاه امرؤ القيس في شعر الرحلة يقوله:

ثَوَى عِنْدَ الوَدِيَّة جَوْفَ بُصْرَى ∴ أبُــو الأيْتــامِ والْكَلِّ الْعِجَافِ

فَمَنْ يَحْمِي الْمضَافَ إذا دَعَاهُ ∴ ويَحْمِلُ خُطَّةَ الأَنَسِ الضِّعَافِ[6].

وبدون شك كان معه آخرون من أهله ومعاونيه وخدمه ورفاقه، فقد كان أميراً قادماً على إمبراطور، ومما يسهل مهمته أن يبدو في مظهر يليق بالمقام ويضفي على موكبه مسحة من الهيبة والجلال والعظمة.

* - قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة المرقب.

الأحداث البارزة قبل الرحلة:

يمكن أن نحدد تاريخ رحلة الشاعر إلى بيزنطة بشيء من ربط الأحداث البارزة التي كانت قبل الرحلة أو تتوافق معها على أرض جزيرة العرب أو خارجها.

امرؤ القيس وعلقمة:

أول إشارة ذات أهمية نلتقي بها وتكون حجر الأساس في المحاولة لقاء امرئ القيس مع علقمة بن عبدة الملقب بالفحل، ذكر الاصمعي: بأن امرأ القيس، لما هرب من المنذر بن ماء السماء، واستقر في طِّيْ، تزوج امرأة منهم يقال لها جندب، ثم إنّ علقمة بن عبدة نزل عنده ضيفاً وتذاكرا الشعر فقال امرؤ القيس: أنا أشعر منك! وقال علقمة: أنا أشعر منك، ولم يكن علقمة يومها شاعراً شيخاً، وإنما كان شاباً فتياً أخذ بمجامع قلب أم جندب زوج امرؤ القيس واحتكما إلى أمِّ جندب لتحكم بينهما، فقالت: قولاً شِعراً تصفان فيه الخيلَ على رويٍّ واحد[7].

فقال امرؤ القيس:

خليليَّ مُرَّا بي عَلَى أمِّ جُنْدُبِ ∴ نُقْضِي لُبـــــانَاتِ الْفُؤَادِ المعذَّبِ[8].

وقال علقمة:

ذَهَبْتُ مِنَ الْهُجْرانِ في كُلِّ مَذْهَبِ ∴ وَلَمْ يَكُ حقّاً كلُّ هذا التجنُّبِ[9].

فقالت لامرئ القيس: علقمة أشعر منك! قال: وكيف؟، قالت لأنك زجرت فرسك وحركته بساقك، وضربته بسوطك في قولك:

فللسَّاق أُلهوبٌ وللسَّوط دِرَّةٌ ∴ وللزَّجر مِنه وَقْعُ أهوج مِنْعَبِ[10].

فقالت جهدت فرسك بسوطك ومريته بساقك، أما علقمة أدرك الصيد ثانياً من عنان فرسه، لم يضربه بسوطه، ولم يمره بساقه، ولم يزجره حين قال:

فأَقبل يهوي ثانِيًا مِن عِنانِهِ∴ يَمُرُّ كمَرِّ الرائِحِ المُتَحَلِّبِ[11].

فقال لها: ما هو بأشعر مني: ولكنك له عاشق! فطلقها وخلفه عليها علقمة، فسمي لذلك الفحل[12]، وقد أورد ابن حجر في الإصابة ابنه في المخضرمين، فيمن أدرك النبي –صلى الله عليه وسلم– ولم يدره، قال علي بن علقمة بن عبدة التميمي، ولد علقمة الشاعر المشهور الذي يعرف بعلقمة الفحل، وكان من شعراء الجاهلية، من أقران امرئ القيس.

ومن وجهة النظر النقدية الخالصة لم يكن الحق في جانب أمِّ جندب وكان مع امرئ القيس، وإشارته إلى أن تحريك الساق يلهب الفرس في الجري، وضربه بالسوط يجعله يدر في العدو، وزجره يجعله كالأهوج لا عقل له، تصوير لما يجرى في الصيد والسباق، ولما يحدث لفرسه و لغير فرسه أحيانا و لا

بفهم منه – في غير مجال التحامل – أن فرس امرئ القيس كان كليلاً لا يسبح في عدوه إلا إذا غمز بالساق وألهب بالسوط.

وفي البيت التالي الذي اتخذته أمّ جندب أساساً وقياساً لتفضيل علقمة على امرئ القيس، وفى وكفى امرئ القيس الشرائط التي رجحت كفة علقمة، فأبان أن فرسه أدرك الوحش دون تعب أو مشقة، في طلق واحد لسرعته، وكان في سرعته كلعبة الخدروف في يد غلام ماهر في قوله:

فَأَدْرَكَ لَمْ يَجْهَدْ وَلَمْ يَثْنِ شَأْوَهُ ∴ يَمُرُّ كَخُذْرُوفِ الْوَلِيدِ الْمُثَقَّبِ[13]

وبكلمة أخرى أمِّ جندب غلب عليها هوى الجنس الآخر على حيدة الناقد– وعيرت ربما من حيث لا تدري – عن نفور داخلي تحسه من أعماقها نحو زوجها، وكان نقدها ترجمانا ينم على مشاعرها و نفسها الكارهة أكثر منه حكما لامرأة متذوقة أو ناقدة.

يوم حليمة:

وأول قصيدة وثَّقها الرواة والعلماء لعلقمة قالها يوم حليمة[14]، وكان بين المنذر بن النعمان وبين الحارث بن أبي شمر الغساني خلافاً، وبدأت الحرب بينهما سجالاً، والتقى الجيشان مرتين أسفرتا على هزيمة المنذر وقتله في الثانية، وأسر الحارث سبعين رجلاً من تميم، بينهم شاس ابن عبدة أخو علقمة– أو ابن أخيه – فتوسط علقمة للحارث ومدحه بقصيدة طويلة أوردها الضَّبي في مفضلياته كاملة ومطلعها:

طحا بك قلبُ في الحسانِ طروبُ∴ بُعَيدَ الشباب عَصْرَ حان مشيبُ.

وبعد مقطعه الغزلي الطويل توجه للحارث في قوله:

إلى الحـــارث الوهَّاب أَعْمَلْتُ ناقتِي ∴ لكـلْـكَـلِهَا والْقَصْرَيْن وجيبُ.

ولما بلغ إلى هذا البيت في قوله:

وفي كلِّ حيٍّ قد خبطتُ بنعمة ∴ فحُقَّ لشاسٍ من نـــذاك ذَنُوبُ[15].

قال الحارث نعم وأذنبه، وإنما أراد علقمة في قوله:

وفي كلِّ حيٍّ قد خبطت بنعمةٍ[16].

أن النابغة كان قد شفع في أسارى بني أسد فأطلقهم الحارث وكانوا نيف وثمانين، ثم سأله علقمة في أسارى بني تميم فاستجاب له وأطلق سراحهم.

كانت معركة يوم "حليمة"[17] عام 554م فإذا أضفت إلى ذلك أن وقعة يوم أوّارة الأول التي قتل فيها سلمة عمر امرؤ القيس كانت سنة 598م أو قريباً منها، وكان حجر والد امرئ القيس يسمى "آكل المرار" لإنه إذا غضب تزيد شفتاه كأنه أكل المرار، قتل بعد هذا التاريخ[18]، أن امرؤ القيس حين التجأ إلى طيء والتقى بعلقمة كان قد طوف في عدة قبائل وجاب الجزيرة كلها، طالب العون، ولاجئاً، وأن

طيئاً كانت آخر من استجار بهم، وكان هذا اللقاء بهم بعد سنة 555م[19]، وتنقل امرؤ القيس في بطون طيء يدبر أمره.

الطريق إلى بيزنطة:

أرسل وفدا إلى قيصر قبل الرحلة، و أمضى في تيماء فترة يدبر نفقات الرحلة، وأن الإمبراطور جوستيان الذي وفد عليه توفي سنة 565م، كان لنا أن نقرر دون اعتساف أن بداية رحلة امرؤ القيس إلى بيزنطة تقع في زمن قريب[20]، من سنة 563م.

وبدون شك كان معه آخرون معه من أهله وأتباعه و معاونيه وخدمه فقد كان أميراً سيداً قادماً على إمبراطور في الدولة ذات سيادةٍ وهيبة في المعمورة، ومما يدلل عليه الصعاب في مهمته أن يبدو في مظهر يليق بالمقام يضفي على موكبه مسحة وهيبة وعظمة ويمكن أن نحدد تاريخ رحلة امرؤ القيس إلى بيزنطة بشيء من المقارنة بين الأحداث البارزة التي سبقت الرحلة على أرض الجزيرة، نستدل بما أورده في شعر الاستنجاد، والاستنفار، و المدح[21].

اللحظات البارزة التي سبقت الرحلة:

1- نزل امرؤ القيس على خالد بن أصبع النبهاني، فأغار عليه بنو جديلة وفيهم باعث الطائي، فذهبوا بإبله فلما أتى امرؤ القيس الخبر ذكر ذلك لجاره خالد؛ فقال له: أعطني رواحلك ألحق القوم فأدركهم، فأعطاه رواحله فلحقهم فقال: يا بني جديلة، أغرتم على جاري! قالوا والله ما هو لك بجار قال: بلى والله ما هذه الإبل التي معكم إلا كالرواحل التي تحتي، فأنزلوه عنها، فذهبوا بها أيضا.

فلما رجع إلى امرؤ القيس تحول امرؤ القيس عنه فنزل على جارية ابن مُرّ بن حنبل من بني ثُعل، فأجره وأكرمه، فمال يمدحه ويمدح بني ثُعل في قوله.

دع عنك نهبًا صِيحَ في حَجَراتِهِ∴ وَلَكِن حَديثاً ما حَديثُ الرَواحِلِ.

كأنَّ دِثــاراً حلّقت بلبـونةِ ∴ عُـقَابُ تَنُوفى لا عُقَابُ القواعِلِ[22].

2- وقد نزل امرؤ القيس لاجئاً ديار بني ثعل فقد أكرموه، وأحسنوا له في المعاملة، وكانوا له خير عون فمدحهم بقوله:

يا ثَــعَلاً وأيْنَ مِنِّي بَنُو ثُعَــلْ ∴ ألا حَبَـذَا قومٌ يَحُلُّــونَ بالجَبَلْ.

نَزَلْتُ عَلَى عَمْرو بْنِ دَرْماءَ بُلْطةً ∴ فَيَا كُرْمَ مَا جارٍوَيَا حُسنَ مَا مَحَل.

تَظَلّ لَبُوني بَينَ جَوٍّ وَمِسْطَـــحٍ ∴ تُرَاعي الفَراخَ الدَّارِجَاتِ من الحَجَلْ[23].

إلى آخر الأبيات.

3- نزل امرؤ القيس على سعد بن الضباب فأجاره و أكرمه فقال:

تنَكَّرَتْ ليلى عن الوَصْلِ ∴ وَنَأَتْ وَرَثَّ مَعَاقِدُ الحَبْلِ.

وَلَوَوْا مَتَاعَهُمُ وَقَدْ سُئِلُوا ∴ بَذْلَ المَتَاعِ فَضُنَّ بالبَذْلِ[24].

إلى آخر الأبيات.

4- ومدح امرؤ القيس المُعَلَّى أحد بني تيم بن ثعلبة من جديلة طيء، وكان أجاره والمنذر بن ماء السماء يطلبه، فمنعه ووفى له في قوله:

كَأَنِّي إذْ نَزَلْتُ عَلَـــى المُعَلَّى∴نَزَلْتُ عَلَى البَوَاذِخِ مِنْ شَمَامِ.

فَمَــا مَلِكُ الْعِرَاقِ على الْمُعَلَّى∴ بِمُقْتَـدِرٍ، ولا مَلكُ الشَّامِ[25].

لما قتل شرحبيل عم امرئ القيس، قام هذا الأخير واستجار بني حنظلة لكن هؤلاء تخاذلوا عنه، فلجأ إلى عوير بن شحنة، ورهطه بني عوف، فأجاره عوير ودافع عنه حتى ألحقه بقومه ومأمنه فمدحة امرأ القيس في قوله:

أحنضلَ لو حَـــامَيتُمُ وصَبَرْتُمُ ∴ لَأَثْنَيْتُ خَيْراً صَالِحاً وَلَأَرْضَانِي.

وَلَكِنْ أَبَى خُذْلَانكُمْ، فَافْتَضَحْتُمُ ∴ وَخَبَّثْتُمْ مِنْ سَعْيِكُمْ كُلَّ إِحْسَانِ[26].

وقال يمدح العوير بن شحنة وقومه بني عوف:

ويقول إن بني عوف قوم العوير ابتنوا حسبا و شرفا بإجارتي وحفظي، وقد صيغ هذا الحسب خاصتي وأهل ثقتي إذ غدروا بي ولم يجبروني في قوله:

إِنَّ بَنِي عَوفَ اِبْتَـنَـــوا حَسَباً ∴ضَيَّعَهُ الدُّخلُلُونَ إِذْ غَدَرُوا.

أَدُّوا إِلى جَـــارِهِ مُخْفارَتَهُ ∴ وَلَم يَضِعْ بِالمَغيبِ مَنْ نَصَرُوا[27].

يقول إن بني عوف قوم العوير ابتنوا حسباً وشرفاً بإجارتي وحفظي، وقد ضيع هذا الحسب غيرهم، الدخللون: هم الذين يداخلون الإنسان في أموره ويختصون به.

وصل امرؤ القيس إلى بيزنطة، كما أوردته الروايات كلها وتختلف فيما عداه[28].

روايات في القصة:

1- تقول الرواية الأولى: إنه صار إلى ملك الروم و أكرمه و نادمه و استمده و فوعده، ثم بعث معه جيشاً فيهم أبناء ملوك الروم، فلما فصل قيل لقيصر إنك أمددت بأبناء ملوك أرضك و خيرة شباب بلدك رجلاً عربياً، غادراً لا يعرف العهد، فإذا تمكن من غرضه، ومما أراد و قهر بهم عدوك غزاك، في عقر دارك، فبعث إليه قيصر مع أحد عملاء العرب كان عنده يقال له: الطمَّاح بن قيس الأسدي – وكان امرؤ القيس قد قتل أخا له– بحلة منسوجة بالذهب مسمومة، فلبسها فأسرع فيه السُّم، وتنقط جسده، والعرب تدعــوه ذا القروح لذلك، ولما صار إلى مدينة أنقرة تغلب و ثقل من شدة الألم فأقام بها حتى مات، وقبره هناك[29].

2- وورد في الرواية الثانية إن الطمَّاح قال لقيصر: إن امرأ القيس غويّ عاهر، وإنه لما انصرف عنك بالعساكر والسلاح ذكر أنه على اتصال بإبنتك ويواصلها، ويقول في ذلك شعرا يشهر بها في العرب فيفضحها و يفضحك. فبعث إليه بحلة وشيء مسمومة منسوجة بالذهب، وقال له: أرسلت إليك بحلتي تكرمة لك، فإذا وصلت إليك فالبسها، واكتب إليَّ بخبرك، فلما وصلت إليه لبسها، فأسرع فيه السُّمُّ وسقط جلده، فسمي لذلك ذا القروح.

3- وروي في الرواية الثالثة: أن ابنة قيصر نظرت إلى امرئ القيس فعشقته، فكان يأتيها وتأتيه، وفطن الطمَّاح بن القيس الأسدي لهما، وكان حجر قد قتل أباه، فرد الفعل، فوشى به إلى الملك، فخرج امرؤ القيس متسرعاً فبعث قيصر رسولاً في طلبه، فأدركه دون أنقرة بيوم ومعه حلة مسمومة، فلبسها في يوم صائف، فتناثر لحمه وتقطر جسده[30].

4- وفي الرواية الرابعة: انفرد بن سهل قائلا: أن قيصر زوجه ابنته، وأنها كرهته لأنه كان مفرَّكاً، فلما دخلت أبغضته، فلما أراد المسير دخلت على أبيها فقالت له: إن امرأ القيس يقول لئن غلب على عدوه ليعطفن عليك فيقتلك ويضم ملكك إلى ملكه، فلم يتهم ابنته على نفسه، فدعا بسبيبة فأنقعها في السم، فلم تم صنعها، بعث بها إلى امرئ القيس مع رجل يتق به، فدخل الحمام فلما خرج لبسها فتقطع لحمه [31].

تعليـــــق:

وبناءً على ما أسلفت تتفق الروايات على الرحلة إلى قيصر، وعلى أنه لم يجن من رحلته شيئاً، وأنه مات في الطريق[32]، وتختلف هذه الروايات في التفاصيل، وبإمكان الباحث أن يميز بين ما هو جوهري أصيل منها، وما كان من إضافة الرواة، وتوليد القصاص.

فاتجاه امرؤ القيس إلى بيزنطة ليس بغريب ولا الأول من نوعه في تاريخ جزيرة العرب قبل الإسلام. كان أجداد امرئ القيس ملوكاً على وسط الجزيرة زمناً، وحكموا الحيرة نفسها، وكانت جداراً أقامه الفرس لحمايتهم من هجمات البدو يضربون ثم يضيعون في الصحراء، وكان بين الفرس وبيزنطة صراع طويل ومرير، وحاول امرؤ القيس أن يستغل هذا الخلاف ويكون أحد العملاء لبيزنطة في شمال شرقي الجزيرة، كما هو الحال مع الغساسنة في الشمال الغربي، وأن يؤدي لها نفس الدور الذي تؤديه الحيرة لفارس، ومن العادي أن يقابل إمبراطور بيزنطة أميراً من جزيرة العرب وأن يحاول استخدامه ضد أعدائه، ولم تكن الأولى في تاريخ إمبراطوراً أو في تاريخ بيزنطة دولة، فقد سبق له أن قابل على مر الأيام عدداً من رجالات العرب يمثلون عدداً من القبائل العربية في جزيرة العرب[33]، ومن التعنت القائم على غير دليل ملموس أن رفض رواية القدامى القائلة إن أسداً حاولت إفساد رحلة امرئ القيس إلى بيزنطة، وهي

تعرف سلفاً قوة جيرانهم على الحدود الشمالية، وفي صراع مع الشاعر يتوقف عليه مستقبل القبيلة ومصيرها، فأرسلت إلى الإمبراطور من يحمل وجهة نظرها، ويشجب محاولة الشاعر الكندي، وعبيد الأبرص شاعر بني أسد يشير في شعره إلى رحلة الشاعر في قوله ساخراً من وعيده وتهديده، ويتهدد بأنه سيلقي مصيره وهو بأرض الشام.

أَزَعَمْتَ أَنَّك سَوف تَأْتِي قَيْصَراً∴ فلنهلِّكنَّ إذا وأنْتَ شامي[34]

ويراودني الشك في أن يكون اسم الرسول الذي ذهب إلى قيصر الطمَّاح، كما تقول الرواية اعتماداً على بيت من الشعر فحسب، ورد في قصيدة موثقة لامرئ القيس دون أن يكون مشفوعا بخبر يفسر هذه الإشارة ويوضح شخصية الرسول، لأن ما جاء في بيت الشعر يحتمل أكثر من تفسير، والتفسير الأقرب إلى المنطق ليس في صالح الرواة في قوله:

لَقد طَمَحَ الطَّمَّاحُ مِن بَعْدِ أَرْضِهِ∴ لِيُلْبِسَنِي من دائِه ما تَـلَبسَّا[35]

والطماح في البيت، ليست علما على شخص، فيما يبدو لي وإنما هي صيغة مبالغة من طمح، كناية عن رجل عدو لامرئ القيس فحسب.

تبدو الرحلة غريبة في إطار وهم قديم نهج نهجه المحدثون، هو أن امرأ القيس رحل إلى بيزنطة ليطلب العون والمؤازرة من القيصر في الأخذ بثأر والده، ذلك أن امرأ القيس ثأر لوالده فعلا، وقتل بسببه كثيراً، واحتمال أن يرحل من أجل هدف كهذا يبدو ضرباً من الحقد و الجنون، وبكلمة واحدة أن امرأ القيس لم يكن مشغولا بالثأر، بل كان هدفه استرداد عرش يصبح به ملكاً مسموع الكلمة، مهيب الجانب في مناحي الحياة في منطقة واسعة لعديد من القبائل ويحتاج حكمها إلى قوة جبارة، وهو صريح في تحديد هدفه في قوله:

فَقُلتُ لَهُ:**لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنّمَا ∴نحاوِلُ مُلْكاً أوْ نُموتَ فَنُعْذَرَا**[36].

وكذلك نستبعد ونرفض أن يكون الإمبراطور قد غضب على امرئ القيس لأنه شبب بابنته، ويحتمل خفقان قلبه عندما رآها، لإن التغزُّل في الحسناوات ليس بمستغرب من شاعر ماجن كامرئ القيس، ولم يكن مما يعاب في بيزنطة في عصر الشاعر ولا بعد عصره، ويشفع هذا بإخبار لا شك فيها عن شاعر عربي آخر، هو يحي الغزال، جاء بلاط قيصر سفيراً لعبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس، فأعجبته زوجة الإمبراطور فتغزل فيها وسجل غزله في كتب الأدب والتاريخ[37]، وكان الإمبراطور وزوجته في سرور تام بما قيل في جمالها.

وفيما يبدو يعود السبب في إخفاق رحلة امرئ القيس إلى الإمبراطور نفسه، فقد كان شيخا هرماً، وتوفى في نفس السنة التي رجع فيها امرئ القيس من بيزنطة أي في سنة 565م، وكانت دولته في آخر

أيامه مهددة بهجمات البرابرة، وانهيار الجيش كماً وكيفاً، فأرضى امرأ القيس بلقاء حار وترحيب، وطيب خاطره بهدايا حسنة، دون أن يتجاوز ذلك إلى إمداده بالمقاتلين والسلاح[38].

وخبر الحلة المسمومة غير صحيح، وأن امرأ القيس كان مصابا بمرض كالجدري، وأن عرقه نتن له رائحة كلب، وأنه كان مصابا بخلل جنسي في بنيته، نتج عنه التهاب جلدي أجمعت عليه كل الروايات، والعلاقة بين أمراض الجنس وأمراض الجلد مقررة علمياً، وأن المرض هو الذي أودى به في الحقيقة، ولا نتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد منه، لنقرر أن الرحلة كلها غير صحيحة دون شاهد ودليل، في حين أن أحداثها يتردد صداها في شعره، في أكثر من قصيدة ومقطوعة، موثقة الرواية، على ما سنوضحه لاحقا[39].

وفاة الشاعر:

توفي امرؤ القيس في الطريق وهو عائداً من بيزنطة سنة 565م، والمرض يفت جسمه فتاً، فلما صار قريباً من أنقرة، رأى قبرامرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سفح جبل عسيب فقال:

أَجَـــارَتَنَا إن المزارَ قَرِيبُ∴ وإِنِّـــي مُقيمُ مَا أَقَامَ عَسِيبُ

أجارَتُنَا إنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا ∴ وكُلُّ غَرِيبٍ للغَرِيبِ نَسِيبُ[40]

وورد في كتاب (شعراء النصرانية للأب شيخو) إن الإمبراطور أمر بأن ينحت له تمثالاً ينصب على ضريحه، وكان التمثال قائما حتى أيام الخليفة المأمون في بلاد الروم وأن الخليفة شاهده في أحد غزواته لبلاد الروم.

ولما بلغ الحارث ابن أبي شمر، موت امرئ القيس، وعرف تركته عند صموئيل (السموءل) من سلاح ودروع وغيرها طمع في الاستيلاء عليها دون أن يدفع ما عليها، فأرسل الحارث بن مالك ليطلبها من صموئيل لكن هذا رفض ولاذ بحُصْنَه وأغلق بابه أمام رسوله الحارث الغساني، وتقول الرواية إن الرسول أخذ ابنا لصموئيل كان خارج الحصن، وجعل إطلاق سراحه مقابل استلام السلاح، فرفض صموئيل، وأثر أن يحفظ الأمانة حتى ولو فقد ابنه، وقد قتل ابنه فعلاً تلك هي القصة في جوهرها، ثم صُنِع منها في أيام صموئيل أو بعدها، وربما لهدف إعلامي دعائي إسرائيليات مقصودة، قصة تجسم الصراع بين الغدر والوفاء، جعلت من صموئيل بطلا لأسطورةٍ– على جدار الزمن – مثالا يحتذى سجلها الأعشى في شعره وقد عاش قريبا من أحداثها، والشك في نسبة الشعر إليه، والظن بأن صانعه هو أحد أبناء صموئيل يسقط اعتبار القصيدة من شعر الأعشى، وتبقى القصة نفسها من أحداث التاريخ، ويمكن أن يكون الشعر مصنوعا ليدعم موقفا معيناً، ولا يتأتى أن ينحل شعراً في مجال التفاخر والتباهي، يعتمد

على قصة موضوعة، ليس لها سند من مقوماتها، وإن اختلفت التفاصيل واختلفت الناس إزاءها في التفسير والتعليل[41].

ورد في بعض كتب الأدب والتاريخ أن رجلاً كلبياً أسر الأعشى وحبسه، ثم أجمع عنده شرْب فيهم شُريحُ بن عمرو الكلبي، فعرف الأعشى، فشفع فيه وخلا سبيله، فأطعمه شريح وسقاه، فلما أخذ منه الشراب سمعه يترنم بهجاء الكلبي، فأراد استرجاعه، فقال الأعشى:

شُرَيــحُ إلا تَترُكَنِّي بَعدَما عَلِقَتْ∴ حِبــالَكَ اليَومَ بَعدَ القِدِّ أَظفاري.

كُن كَالسَمَوءلِ إِذا طاف الهُمامُ بهُ ∴ في جَحفَلٍ كَهزيع اللَيلِ جَرّار[42].

إلى آخر الأبيات.

وصف الرحلة:

ومن الشعر الذي يتصل بالرحلة إلى قيصر الروم ثلاث قصائد يلتقي في روايتهما العالمان الجليلان، عبد الملك الأصمعي والمفضل الضبي وآخرون، ومقطوعة تفرد الظبيَّ بروايتها، وقصيدة أوردها الطوسي، لم تثبت في رواية المفضل ونسبها غيره إلى امرئ القيس، ومقطوعتان مما زاده السكري على غيره من الرواة.

القصيدة الأولى فيها كمٌ هائلٌ من الإشارات إلى الرحلة، وأحداثها[43]، لعل قالها في طريقه إلى بيزنطة؛ لأنها رغم وميض التشاؤم الذي يتجلى بين سطورها، تعكس روح شاعر لم يصرع اليابس ما يؤمله من رحلته بعد، ومن جهة نظري النقدية هي خير شعره، وأروعه، وتتجلى فيها شخصية امرئ القيس الشاعر بجلاء، استهلها بمقدمة طللية مصرعة طويلة في قوله:

سَمَا بِكَ شَوْقٌ بَعْدَما كانَ أَقصَرا ∴ وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوٍّ فَعَرْعَرَا[44]

وكانت مقدمته أطول مقدمة طللية في ديوانه، وتلائم موضوع الرحلة، وتلاها بغزل وقورحيّ بامتياز، انتقل منه إلى تذكر أهله وذويه الصالحين، وقد بعد به الطريق، وتجاوز " خملي" "وأرجز" من بلاد الشام، فلما أشرف على "حوران" دخل على عالم مجهول، لا يصله به نسب، ولا تشده إليه عاطفة، ولأنه يرى شيئا كثيرا ولا يرى شيئا، فلما عبر "حماة" و"شيرز" تقطعت به أسباب الذكرى يأسا، وشغل بما فيه شدة وعناء، وقد أغدت القافلة تجهد نفسها مسرعة فوق طاقتها، حتى ضجت الإبل، ومن تخلف لشيء أصابه لم يتربص عليه أحد حتى يدرك الركب، ورغم أهواله وهمه لم ينس صويحباته هناك، في ظعائن مرتفعة، خضراء اللون تحاكي الطبيعة ونباتاتها، كأثل الوادي، خلفنَّ "بيشة" و "الغمير" قاصدات "غضور" في قوله:

تَذَكَّرتُ أَهْلي الصَّالِحينَ وَقَدْ أَتَتْ ∴ عَلَىَّ خَمْلَى خوضُ الرِكابِ وَأَوجَرا.

فَلَمّا بَدتْ حَوْرَانُ في الآلِ دُونَهَا ∴ نَظَرتُ فَلَم تَنظُر بِعَيْنَيْكَ مَنظَرَا.
تَقَطَّعُ أَسبـــابُ اللُبانَةِ وَالهَوى ∴ عَشِيَّةَ جاوَزنا حَمــاةَ وَشَيْزَرَا.
بِسَيرٍ يَضِجُّ العَودُ مِنهُ يَمُنُّهُ ∴ أَخُوا الجَهْدِ لاَيَلْوي عَلى مَن تَعَذَّرَا.
وَلَم يُنسِني ما قَـــد لَقيتُ ظَعائِناً ∴ وَخَملاً لَها كَالقَرِّ يَوماً مُخَدَّرَا.
كَأَتلٍ مِنَ الأَعراضِ مِن دونِ بَيْشَةٍ ∴ وَدونَ الغُمَيرِ عامِداتٍ لِغَضوَرَا[45].

وصف الناقة:

ثم وصف ناقته أنها تحمل على ظهرها فتى لم يكن على الأرض مثله، وفاء بما عاهد عليه، وصبراً على الشدائد في جميع الأحوال، وسنوضح بإيجاز ما صنع من أجل الثأر لأبيه مباهياً، فهو المُنزِّل الألوف من بوادي ناعط بأرض همذان على بني أسد، وإذا أرادوا السلامة فعليهم أن ينزلوا ما أغلظ من الأرض وخشن، أو يتحصنوا بالجبال، وفخر بقومه من اليمن، فزعم أن بوسعه أن يسوق إلى بني أسد من يغزوهم من حمير، لكنه عمد إلى طلب العون من قيصر نكاية بهم وتشنيعاً، وتطلعا لمكانته وشرفه في قوله:

فَدَعْ ذا وَسَلِّ الهـــمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ ∴ ذَمـُولٍ إذا صَامَ النَّهارُ وَهَجّرَا
عَلَيْهَـا فَتىً لَم تَحْمِلِ الأَرضُ مِثلَهُ ∴ أَبَرَّ بِمِيثَاقٍ وَأَوفـى وَأَصبَرا.
هُوَ المُنزِلُ الآلافِ مِن جَوِّ ناعِطٍ ∴ بَني أَسَدٍ حَزناً مِنَ الأَرضِ أَوْعَرا.
وَلَو شَاءَ كَانَ الغَزوُ مِن أَرضِ حِميَرٍ ∴ وَلَكِنَّهُ عَمْداً إِلى الرُّومِ أَنْفَرا[46].

وفي أثناء الرحلة و ما تربت عليها من تعب و مشقة، أحس عمرو بن قميئة، و كان شيخاً طاعن في السن بقسوة الغربة، وعذاب الوحدة، و المصير المجهول، فحن إلى قومه و أرضه وأمه، وشعر بالغربة فبكى وهو يغادر آخر شبر من أرض الجزيرة، ويضع أول قدم في أرض بيزنطة، وأيقن أن الرحلة غير قصيرة، فهدهد امرؤ القيس من آلامه، وسلاه من أحزانه: إنما نحن طلاب ملك تهون دونه الصعاب، ولئن متنا دونه فسوف يلتمس لنا الأنام عذراً ولئن عدت بجيش من قيصر أسترد به ملكي فسوف أطوي الأرض طيًّا فنبلغ أوطاننا في زمن وجيز في قوله:

بَكَى صَاحِبيَّ لَمَّا رَأَى الدَّرْبَدُونَهُ ∴ وَأَيْقَنَ أَنَّا لَحِقَانِ بِقَيْصَرَا.

فَقُلتُ لَهُ:

لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنّمَـــانحاوِلُ ∴ مُلْكـــاً أَوْ نُموتَ فَنُعْذَرَا.
وإنِّي زعيمٌ إنْ رَجَعتُ مُملْكـاً ∴ بَسيْرٍ تَرَى مِنْهُ الفُرَانِقَ أَزْوَرَا[47].

وصف الطريق:

ثم أخذ يصف الطريق التي سلكها في الرحلة فهي طريق واضحة المعالم، طويلة لا يحتاج إلى علم يرشد أو منار يهتدى به، إذا شمته الإبل المسنة جزعت لبعده وقلة مائه وما تلقى فيه من مشقة، ومركوبه في الرحلة فرسٌ قوي استخدم من قبل في البريد، خميص البطن كذئب الغضا، منطلقا يتصبب العرق من جوانبه لشدة السَّيْر ومشقته، فإذا حركه بالركض والزجر من جانبيه تبختر في مشيه وتمايل، ثم حرك فمه باللجام عبثاً ونشاطاً فإذا شق علينا السير طلبت من صاحبي أن يروِّح عنَّا، فأرن "الفرانق" بالغناء، وهو على فرس قوي شديد، ليّن العروق والمفاصل، مقطوع الذنب في قوله:

عَلَى لاحِبٍ لا يُهْتَدي بِمَنـــارِهِ ∴ إذا سافَهُ العَوْدُ النُّباطِيُّ جَرجَـرا.
عَلى كُلِّ مَقْصُوصِ الذُّنَابَى مُعَاوِدٍ ∴ بَريدَ السَرى بِاللَيلِ مِن خَيلِ بَرْبَرَا.
أَقَبَّ كَسَرْحـــانِ الغَضَى مُتَمَطِّرٍ ∴ تَرى المـــاءَ مِن أَعطافِهِ قَد تَحَدَّرَا.
إذا زُعْتُهُ مِنْ جـــانِبَيهِ كِلَيهِما ∴ مَشى الهَيْدَبَى في دُفِّـــهِ ثُمَّ فَرْفَرا.
إذا قُلتُ رَوِّحنـــــا أَرَنَّ فُرانِقٌ ∴ عَلى جَلعَدٍ واهي الأَباجِلِ أَبْتَرا[48].

والطريق لا ينتهي، إلى بلاد هو فيها غريب اليد والوجه واللسان، أنكرته بعلبك وأهلها، وكان الروم في حمص أشد إنكاراً له، ووجد نفسه مشدود القلب إلى وطنه، يتابع المطر هاطلاً، مؤملا أن يكون مصبّه ديار أهله وأحبابه، ولكن لا شيء يشفيه من الشوق إلى ابنه "عفزرا" والحنين إليها وإلى غيرها من جميلات قومه، العفيفات المترفات المتنعّمات الطريات الرقيقات، لو مرت نملة فوق ثوب واحدة منهن لأثرت في بشرتها وحسبه من الرحلة شقاء أنها تبعده عن أم هاشم والبسباسة بنتُ يشكرا في قوله:

لَقَد أَنكَرَتنـــي بَعلَبَكُّ وَأَهلُـــها ∴ وَلَابنُ جُرَيجٍ في قُرى حِمصُ أَنكَرا.
نَشيمُ بِرُوقِ المُزنِ أَينَ مَصابَهُ ∴ وَلاَ شَيءَ يَشفي مِنْكِ يا ابْنَةَ عَفْزَرَا.
مِنَ القَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَو دَبَّ مُحولٌ ∴ مِنَ الدُرِّ فَوْقَ الإِتبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا.
لَهُ الوَيلُ إِن أَمْسَى وَلاَ أُمُّ هاشِمٍ ∴ قَريبٌ وَلا الْبَسْبَاسَةُ ابْنَةُ يَشْكُرا[49].

تعليـق ونقـد:

الإقامة في بيزنطة:

أمضى الشاعر خمس عشرة ليلة سيراً وراء الحساء من أرض بيزنطة في بلاد قيصر بدا له أن أم عمرو بن قميئة تندب فراق ابنها عمرو، وترسل دمعها غزيراً، وهو يبكي أكثر من أمه، وبعيداً عن صحبه في قصنه ولهوه وعن معاهده التي احتفت به فتى لاهياً، ثم أميراً ثائراً، راح يندب حظه من

الدنيا، لا ارتضى صديقاً تأنس به روحي وتقر به عيني، إلا أخلف ظني، وخان سري، فاتخذت صاحبا غيره، ولكن الناس كلهم سواسية في هذا الخلق في قوله:

إذا نَحْنُ سِرْنَا خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةٍ ∴ وَراءَ الحِساءِ مِن مَدافِعِ قَيصَرَا.
أَرى أُمَّ عَمْرٍو دَمعُها قَد تَحَدَّرَ ∴ بُكاءً عَلى عَمرٍو وَما كانَ أَصْبَرَا.
إِذا قُلتُ هَذا صاحِبٌ قَد رَضيتُهُ ∴ وَقَرَّت لَهُ العَيــنانِ بُدِّلتُ آخَرا.
كَذَلِكَ جَدِّي ما أُصاحِبُ صاحِباً ∴ مِنَ النَّاسِ إِلّا خــانَنِي وَتَغَيَّرا[50].

ونراه يخلص لنفسه، يفخر – على غير عادة منه – بأهله وذويه وأصلهم البعيد، فلقد كانوا قبل غزوة "قرمل"[51]، ورغما منها، كانوا هم السادة في جل مناحي الحياة، والتمس لخيله في تراخيها عذراً فليس ذلك جبنا منها، وإنما حنينا منها إلى مرابطها في (بربعيص) و(ميسرا)، وما أكثر الأيام التي شهدها في عدة مواقع مشيراً إلى انتصاراته فيها، وكيف كان وأصحابه حذر وخوف كأنهم على قرن ثور، فأصابوا وحققوا مرادهم ثم أبان عن شيء من عاداته، يزهو بغناه و ثرائه، أنهم يسكرون حتى يحسبوا الخيل حولهم غنماً والأسود أشقرا، في قوله:

وَكُنَّا أُناساً قَبلَ غَزوَةِ قُرمُلٍ ∴ وَرَثنــا الغِنى وَالمَجدَ أَكبَرَ أَكبَــرا.
وَما جَبُنَت خَيلي وَلَكِن تَذَكَّرَت ∴ مَرابِطَهــا من بَربَعيص وَمَيسَــــرا.
أَلا رُبَّ يَومٍ صالِحٍ قَد شَهِدتُــهُ ∴ بِتاذِفَ ذاتِ التَلِّ مِن فَوقِ طَرْطَــــرا.
وَلا مِثلَ يَومٍ في قُذارانَ ظِلتُــهُ ∴ كَأَنّي وَأَصحابي عَلى قَرْنِ أَعْفَــــرا.
وَنَشرَبُ حَتّى نَحسِبَ الخَيْلَ حَوْلَنا ∴ نِقاداً وَحَتَّى نَحسِبَ الجُونَ أَشْقَرَا[52].

القصيدة الثانية التي تتصل بالرحلة إلى بيزنطة يأتي ترتيبها التاسعة من الديوان في طبعته الجديدة المحققة، وهي أقل من الأولى، فتلك في أربعة و خمسين بيتاً، وهذه تتجاوز السابعة عشر، ومن جوها وفحواها يبدو أنها كانت تالية في الخلق لتلك، استهلها بمقدمة طللية قصيرة[53]ما لبث أن تجاوزها إلى ذكر حاله مريضا على سريره بإشراف ورعاية جابر بن حي التغلبيّ في رحَالته، ذوى جسمه، واتسعت عليه ملابسه، فهي مضطربة تذهب مع الريح كهودج يتمائلا – فوق ظهر عَذُولَيَّةُ أو من سفين ابن يامن–، وفي مثل حاله ضعيفاً منهكاً وحيداً عاجزاً بدأ يلتف داخل نفسه، يتذكر أيامه الخالية بما فيها من ذكرياته وأيامه وصبواته، فما أكثر ما فك محصوراً وفرج على مهموم، وأفتدى أسيراً، وأصدقاء له معهم أيقضهم من النوم باكراً فلبوا النداء وهم بين المتناول ثيابه في الظلمة وآخر كالسكران، واتجه إلى أرض واسعة ووديان رحيبة قطعها على ظهر ناقة قوية الخلق لينة في مشيها مذعان أي مطاوعة لراكبها، وسهول أصابها الغيث فأعشبت وتلونت بألوان مختلفة، حل بها كفرس ضخم مسرع عادة دون تكلف أو سؤال في قوله:

فَإِمَّــا تَرَيْنِي في رِحَالَةِ جَــابِرٍ ∴ عَلَى حَرَجٍ كالْقَرِّ تَخْفِقُ أَكْفَــانِي
فَيــا رُبَّ مَكْرُوبٍ كَرَرْتُ وَرَاءَهُ ∴ وعَانٍ فَكَكْتُ الغُلَّ عَنْهُ فَفَدَّانِــي.
وَفِتْيَـــانِ صِدْقٍ قَدْ بَعَثْتُ بِسُحْرَةٍ ∴ فَقَامُوا جَمِيعاً بَينَ عاثٍ وَنَشْوَانِ.
وَخَرْقٍ بَعِيدٍ قَدْ قَطَعْتُ نِيَاطَهُ على ∴ ذاتِ لَوْتٍ سَهْوَةِ المشْيِ مِذْعانِ.
وغَيْثٍ كَأَلْوَانِ الْفَنَــا قَدْ هَبَطْتُهُ ∴ تَعَـــاوَرَ فِيه كُلُّ أَوطَفَ حَنَّانِ.
علَى هَيكَلٍ يُعْطِيكَ قبلَ سُؤالِــهِ ∴ أفانينَ جري غيــر كزّ وَلا وَانِ[54].

وتنتهي به القصيدة أو ينتهي بها الرواة عند وصف الحصان بأبيات لا تعكس من واقع الرحلة شيئا.

القصيدة الأخيرة التي تتصل برحلة امريء القيس ترتيبها الثالثة عشرة من الطبعة الحديثة[55] لديوانه وأبياتها أربعة عشر، فهي أقصر من الثانية، ويتضح أنه قالها في عودته، ومقدمتها الطللية، لا تزيد عن ثلاثة أبيات، ينتقل منها إلى الحديث عن داء يشده إلى السهر، فلا ينام شيئا إلا أن يكب فينعس، ومع الظلمة يتذكر أيام مرضه القديم خاشيا أن يصاب بنكسة يعاوده فيها المرض، ومع الإحساس بالعجز يسلي نفسه يتذكر ما صنع في أيامه الخوالي وهو سليم معافى، فما أكثر – في سوابق أيامه – ما أنجد مكروبا محاصرا، طاعنا عنه الخيل حتى أفلت من عدوه، وما أكثر الأيام التي كان يخلص فيها لنفسه، حتى يكون وسيماً محبوباً من الجنس الآخر يشهدنَ صوته، ميلاً إليه وكلفاً به، كما ترجع الإبل إلى الفحل منها في قوله:

تَأَوَّبَنِي دَائِــي القَدِيمُ فَغَلَّسَاء ∴ أُحَاذِرُ أنْ يَرْتَدّ دائي فَأُنْكَسَــا.
فَإِمَّا تَرِينِي لَا أُغَمِّضُ سَـــاعةً ∴ مِنَ اللَّيلِ إلا أن أَكِبَّ فَأَنْعَسَــا.
فَيا رُبّ مَكـــرُوبٍ كَرَرْتُ وَرَاءَهُ ∴ وَطَاعنَتُ عنهُ الخيلَ حتَّى تَنَفَّسَــا.
وَيَا رُبَّ يَوْمٍ قَدْ أرُوحُ مُرَجَّــلاً ∴ حَبِيباً إلى البِيضِ الكَوَاعِبِ أملَسَــا.
يرَعْنَ إلى صَوْتي إذا ما سَمِعْنَهُ ∴ كمَا تَرْعوِى عِيطٌ إلى صَوْتِ أَعْيَسَا[56].

ولما انقلبت الموازين وظهرت عيوبه لكبر سنه وتصرم من بين يديه المال، وهي عوارض تُنفِّرُ النساء منه، ومن أي إنسان، ومع ذلك فهو لا يضيق بالحياة حتى ولو قست، ولو أعجزه المرض حتى من ارتداء ثيابه بنفسه، وأصعب شيء عنده أن الموت لا يأتيه سليماً معافى فيذهب بنفسه دفعة واحدة، ولكنه يموت سريرياً، وذلك الموت، كأن منيته قد استحالت إلى البؤس، ورغم أهوال المرض، وعناء الغربة، ومأساة العجز، مزال متأملا في الفرج أملا أن يتبدل كل شيء عكسه في قوله:

أَرَاهُنَّ لا يُحْبِبنَ مَن قَلَّ مَالُهُ ∴ ولا مَن رَأَيْنَ الشَّيْبَ فيه وقَوَّسَا.
وما خِفْتُ تَبريحَ الحياةَ كما أَرَى ∴ تَضِيقُ ذِراعي أنْ أَقُومَ فألبَسَا.
فلو أَنَّها نَفْسٌ تموتُ جَمِيعَةً ∴ وَلَكِنّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أنْفُسَا.

وبُدِّلْتُ قَرْحًا دَامِيًا بعدَ صِحَّةٍ ∴ لعلَّ مَنَايَانَا تَحوَّلْن أَبْؤُسَا.
لَقَدْ طَمَحَ الطَّمّاحُ مِن بُعْدِ أَرْضِهِ ∴ لِيُلْبِسَنِي مِن دَائِهِ ما تَلَبَّسَا.
أَلا إِنَّ بعدَ العُدْمِ للمـرءِ قِنْوَةً ∴ وَبعدَ المَشيبِ طولَ عُمْرٍ ومَلْبَسَـا[57].

المقطوعة: ففي أبيات ثمانية، وانفرد بها الضبّي فلم يشاركه الأصمعي في روايتها، ويأتي ترتيبها السادس والأربعين في الطبعة الجديدة من الديوان، ويغلب على الظن أنها جزء من قصيدة، لخلوها من المقدمة الطللية، وغير مصرعة، ويتجلى أن ترتيبها في الخلق جاء بعد القصائد التي تعرضت لها من قبل، لأنها تعكس نفس الشاعر يرى الموت يداهمه فلا يملك له دفعا، ويأمل أن يعلم قومه حاله، وما هو فيه.

لقد قطع رحلة الحياة كأي إنسان، بحلوها ومرها، ثم جاءته النهاية، بلي جسده، وأنهكت روحه وذوت آماله وتلك طبيعة البشر، فما زعم لنفسه يوماً أنه قُدَّمن حديد أو حجر وليست ثورته على الموت، ولا نقمته على انتهاء حياته، لأن الخلود محال، لكنه ضائق لموته في أرض الروم بمنأى عن قومه وأهله، ولو جاد بنفسه بينهم للقي المنية مطمئنا، مؤمنا بأن الموت حق، لقد شقى بآماله الكبار يطلب ملكا كملك قيصر، ومن كانت له مثلها وعلى حالة من المرض فإن الموت، يترقبه بأرض الغربة في كل خطوة، وليس له من يأسُو أو يشفى أو يعود[58] في قوله:

أَلَا أَبْلِغْ بَنِي حُجْرٍ بن عَمْرٍو ∴ وَأَبْلِغْ ذلِك الحَيَّ الحَرِيدَا.
بِأَنِّي قَدْ بَقِيتُ بَقاءَ نَفْسٍ ∴ وَلَمْ أَخْلَقْ سِلَامًا أو حَدِيدًا.
فَلَوْ أَنِّي هَلَكْتُ بِدار قَوْمِي ∴ لَقُلْتُ المَوْتَ حَقٌ لاَ خُلُودَا.
وَلَكِنِّي هَلَكْـتُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ∴ بعيداً مِنْ دِيَـــارِكُمُ بَعِيدَا.
أُعالِجُ مُلْكَ قَيْصَرَ كُلَّ يَوْمٍ ∴ وأَجْدِرْ بِالمَنِيّةِ أَنْ تَعــودَا.
بِأَرْضِ الرُّومِ لا نسَبٌ قَرِيبٌ ∴ ولا شـافٍ فَيُسْنِدَ أَوْ يَعُودَا.
ولَوْ وافَقْتُهُنَّ على أُسَيْسٍ ∴ ضُحيًّاأو ورَدْنَ بِنا وُرُودا.
على قُلُصٍ تظَلُّ مقلَّدَاتٍ ∴ أَزُمَّتَهُنَّ مـا بَعْدِفْنَ عُودَا[59].

وانفرد السكري برواية أربعة أبيات، قاطعة الدلالة في موت امرئ القيس، ضاربة بعرض الحائط كل الأقاصيص التي وردت عن الحلة المسمومة، والدوافع، والحاجات، والانفعالات، والعواطف، المتعلقة بها، فهو يتحدث فيها بكل شفافية ودقة عن قروح عمت جسمه، وأعجزته عن السير كما لو كان مصابا في مفاصله وتكاثرت ونزَّ صديدها، فيبدو معها كل ثوب يلبسه، ولو كان جديداً يرتديه للمرة الأولى، قديماً خلقا قد لُبس دهرًا، وتناثرت الدمامل على بشرته كأختام متراصة على صحيفة في قوله:

لِمَــنْ طَلَلٌ دَاثِرٌ آيُـــــهُ ∴ تَقادَمَ في سَــالِفِ الأَحْرُسِ[60].

فَإمّـــا تَرَيْني بي عُرَّةٌ[61] ∴ كَأَنِّي نَكِيبُ مِـــنَ النِّقْرِسِ.
وَصَيّرَني القَرْحُ في جُبَـةٍ ∴ تُخَالُ لَبِيســـاً وَلَمْ تُلْبَسِ[62].
تَرَى أَثَرَ القُرْحِ في جِلْدِهِ ∴ كنَقشِ الخَواتِمِ في الجِرْجِسِ[63].

كما انفرد أيضاً برواية الأبيات التالية له، قالها وهو يحتضر قريباً من أنقرة في قوله:

رُبَّ طَعْنَـــةٍ مُثْعَنْجِرَه ∴ وَجَفْنَـــةٍ مُتَحَيِّرَةْ.
وَقَصِيدَةٍ مُـــــحَبَّرَةْ ∴ تَبْقَى غَدًا بِأَنْقَـرَةْ[64].

وزاد أبو سهل في مخطوطته البيتين التاليين:

أَجَارتَنا إنَّ المزارَ قَرِيبُ ∴ وَإنِّي مُقيم ما أقام عسيبُ.
أجارتنا إنَّا غريبان هَاهُنا ∴ وكلُّ غَريبٍ للغريبِ نسيبُ[65].

زاعمين أنه قالها حين حضرته المنية عند سفح جبل اسمه (عسيب) قريباً من قبر امرأة غريبة مدفونة هناك، وهو استنتاج ممكن، إلا أن البيت لا يقطع به، ويمكن لأي غريب في أي رحلة أن يستشعر بالغربة فيجري على لسانه مثل هذا الشعر إبداعاً وتمثلاً، وأميل إلى أن البيتين بعض من القصيدة وليسا بمنفردين.

تلك هي رحلة امرئ القيس إلى بيزنطة من خلال شعره، صورت القصائد جانباً غير قليل من مشاعر صاحبها النفسية، ومترجما إياها بمنأى عن ديار أهله، في مدن يراها للمرة الأولى، موزع القلب بين ملك يترقبه ويرجوه بفارغ الصبر، و أمس طافح بالذكريات الجميلة وغير الجميلة، وتصوير الشعر للرحلة أدق وأكمل من تصوير الرواية لها، وإن تجرد من التفاصيل، لأنه بمنأى عن الافتعال و الخرافة والأسطورة وخوارق الأشياء ومن خلال شعره الذي وصلنا نعرف شيئا عن رفاق الشاعر في رحلته، وعن جل تراجم مشاعره المتلونة، المتأرجحة بين الرجاء و اليأس، يقوي عزائم رفاقه، فإذا انهارت عزائمه، حاول التجلد و التماسك، فيهما إشارة إلى الأسباب التي جعلته يرحل إلى بيزنطة، وتعداد للمدن التي مر بها، ووصفاً للطرق التي سلكها، وما ترتب عليها من المشاق التي تعاوره ثم حركت عليه داءه القديم فذهب ضحية له. ولا أظن شاعرا داخل نطاق الشعر وقيوده و الفن و لوازمه يمكن أن يصنع صنيع امرىء القيس في رحلة له بأوفى مما تحدث امرؤ القيس، إذا أخذنا في الحسبان جانباً من شعر ضاع ولم يصلنا .

الخاتمة

ولا نتوقع من إنسان رهيف الحس كامرىء القيس أن يصبح شاعراً، نظاماً يجعل شعره أرجوزة يضمنها وقائع رحلته ومواقف وأحداث قومه وغيرهم، على نحو أدبي وعلمي يختفي معهما الانفعال والعاطفة والخيال، ويحل بدلها التحلي والتروّي، والعقلانية، التماساً للحقيقة، في زمان ومكان وبيئة لم يكن التاريخ فيها علما يكتب في النثر بل الشعر، ولا أظن شاعراً في الماضي أو في الحاضر، في تاريخ

الأدب العربي أو غيره من الآداب الأخرى، عني بأن يجعل من شعره معرضاً لوقائع التاريخ، مترجمة كحقائق مجردة، ومع ذلك، فقد أعطى امرؤ القيس للقارىء والباحث من الإشارات التاريخية و الجغرافية مكفياً و موفياً ليجعل من الرحلة واقعاً تاريخياً، ومن شعره المروي عنه حقيقة يصعب إنكارها، في صدى هذه الرِّحلة من خلال شعره في رحلته الماكوكية، وفي الرحلة مواقف سلبية تنم على أصحابها كالوشاية والخيانة والأكاذيب وغيرها.

وبكلمة أخرى، لقد ترك امرؤ القيس أثراً في الأدب العربي، لم يتركه شاعر عربي آخر، وظل الشعراء ينهجون نهجه إلى اليوم، فلعل في هذه الدراسة نفحات من الوفاء له، وإنها لدونه وإنَّه أكبر منها.

الهوامش

[1] - مكي، الطاهر أحمد، امرؤ القيس، حياته وشعره، ط4، دار المعارف، كرنيش النيل، القاهرة، د.ب، 1979م:87.

[2] - علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. ط، دار المعارف، مصر، مخطوطة نادرة عن العرب قبل الإسلام للعالم الثقة عبدالملك بن قريب د.ت: 3:222.

[3] - مكي، الطاهر أحمد، مرجع سابق:87.

[4] - الفاخوري ، حنّا، ديوان امرئ القيس تحقيق وتبويب وشرح وضبط أبياته بالشكل، ط1، دار الجبل بيروت، د.ت، 342.

[5] - نفسه: 87.

[6] - نفســه: 294.

[7] - نفســه: 70.

[8] - نفســه :71.

[9] - ديوان علقمة الفحل، تحقيق الصقال والخطيب، مراجعة فخر الدين قباوي، ط، دار الكتاب العربي، حلب، د.ب، د.ت، قافية : الباء.

[10] - الفاخوري ، حنّا، مرجع سابق: 70، وما بعدها.

[11] - ديوان علقمة، مرجع سابق: قافية الباء.

[12] - البغدادي، عبد القادر عمر، خزانة الأدب، تحقيق: عبدالسلام هارون، د. ط، مكتبة الخانجي القاهرة د. ب، د. ت: 284 وما بعدها.

[13] - الفاخوري، حنّا، مرجع سابق: 80.

[14] - يوم حليمة جرت معارك هذا اليوم في مقاطعة نسرين، وحليمة ابنة الحارث الغساني وقد عطرت الجنود بيديها قبل المعركة مائة بطل من أبطال الغساسنة تهيؤا للموت وألبستهم الدروع وثيابا من التيل الأبيض وقد أعلن أبوها أنه سيزوجها ممن سيقتل النعمان بن المنذر، ملك الحيرة. ينظر: مكي، الطاهر أحمد، مرجع سابق: 88، هامش:1.

[15] - ديوان علقمة مرجع سابق قافية الباء، ولمراجعة قصيدة النابغة الذبياني في مدح الغساسنة والظروف التي قيلت فيها وشرحها، ينظر: عمر الدسوقي والنابغة الذبياني، ط 1، د. ن، القاهرة، د.ب، 1949م: 126، وما بعدها.

[16] - العشماوي، محمد زكي، النابغة الذبياني، د. ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د. ب :1988 م:67.

[17] - وكان الحارث الغساني، وهو الأعرج، وجه إلى المنذر بن ماء السماء مائة فارس بقيادة لبيد الشاعر، إلى عسكر المنذر وأظهروا له الطاعة، ولما تمكنوا منه قتلوه، وهربوا فقتل أكثرهم ونجا لبيد؛ فأتى الملك غسان فأخبره، فحمل الغسانيون على عسكر المنذر فهزموهم فهو يوم حليمة المعروف عند أيام العرب، وحليمة: بنت الملك غسان، فطيبت الجنود و ألبستهم الأكفان: ينظر: البغدادي، عبد القادر عمر، خزانة الأدب لسان العرب، مرجع سابق: 247:2؛ حاوي، أشرف خليل موسوعة، الشعر العربي: – القصيدة، ، د. ط، شركة خياط للكتب و النشر – بيروت، د. ب، المجلد الثالث: 354.

[18] - كان حُجر يسمى آكل المرار هو من أفضل أهل عصره وأشجعهم في الملمات، وقتله غلام من بني كاهل، حجر قد قتل أباه، وهذا بتحريض من علباء بن الحارث سنة: 480، وسمي آكل المرار، لأن حجر إذا غضب تزيد شفتاه كأنه بعير أكل المرار، ينظر: الفاخوري، حنّا، مرجع سابق: 40، 47.

[19] - الدينوري، أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق وضبط، مفيد قميحة، مراجعة وضبط نصه أ. نعيم زرزور،ط2، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان 1985م: 125، وما بعدها.

[20] - جواد علي، مرجع سابق: 220:3، وما بعدها؛ ومخطوطة نادرة عن تاريخ العرب قبل الإسلام، للعالم الثقة: عبدالملك بن قريب الأصمعي، تحقيق: الشيخ محمد حسن ياسين نشرها لأول مرة سنة:1991 م في بغداد.

[21] - الفاخوري، حنّا، مرجع سابق: 312، النهب: الأخذ والسلب والغلبة على المال والقهر.

[22] - نفسه: 312 وما بعدها.

[23] - نفسه: 293.

[24] - نفسه: 296، تنكرت تغيرت عن حالها ويروى أتنكرت : بعدت ونأت.

[25] - البوادخ جمع بادخ، وهو الشامخ العالي– يقول نزولي على المعلى لامتناعي به وتحصيني كنزولي على أعلى الجبال، الشام: اسم جبل لباهلة، ينظر نفسه: 306.

[26] - نفسه: 308، وما بعدها، الخذلان: ترك النصرة والعون.

[27] - نفسه: 310.

[28] - مكي، الطاهر أحمد، مرجع سابق: 89.

[29] - نفسه: 89، وما بعدها.

[30] - نفسه: 90.

[31] - نفسه: 90.

[32] - الفاخوري، حنّا، مرجع سابق: 356.

[33] - الأصفهاني، أبي فرج الأصفهاني، الأغاني، د. ط، د. ت: 62؛ الحموي، ياقوت، معجم اللسان، معجم البلدان، د. ط، المقدسي، القاهرة، د. ب، د.ت، مجلد 3: 428؛ البهبيتي، محمد نجيب، تاريخ الشعر العربي، د. ط، دار الكتب العربية، د. ب، د. ت: 33.

[34] - ديوان عبيد بن الأبرص، د. ط، دار صادر – بيروت، د.ب، د.ت، قافية الميم، و الصفحات 44، 68، 100، 121، 141، وهذا أثره كنده في شعر الحروب الأهلية التي قادها امرئ القيس ضد قاتلي أبيه.

[35] - يُروى أنه أصيب بمرض مشابه لمرض الجدري فصنع به القروح، وقد أصابه هذا المرض بالعدوى من الطمَّاح الذي كان قد أصيب به قبل امرئ القيس والطمَّاح هذا رجل أسدي وشى بالشاعر عند قيصر الذي كان قد أمده برجاله للحرب للأخذ بثأر أبيه فصدق القيصر الطمَّاح وأرسل معه حلة مسممة هدية للشاعر وحصل له ما حصل من مرض على إثرها. ينظر: الفاخوري، حنّا، مرجع سابق:353.

[36] - راح امرئ القيس يلهي صديقه عن البكاء إذا ظهر له سمو مرادهم وهو الملك، ولم يقصرهم عن هذا المطلب إلا الموت فيكون لهم العدو، نفسه: 339.

[37] - التلمسانيّ، شيخ أحمد بن محمد المغربي، نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق وضبط غرائبه وعلق حواشيه، محمد محي الدين عبد الحميد، د. ط، طبعة محي الدين، القاهرة، د.ب، د.ت، :3 : 21.

[38] - مكي، الطاهر أحمد، مرجع سابق: 92، وما بعدها.

[39] - نفسه: 92، وما بعدها.

[40] - الفاخوري، حنّا، مرجع سابق:356.

[41] - مكي، الطاهر أحمد، مرجع سابق: 92، وما بعدها.

[42] - ديوان الأعشى، د. ط، دار صادر، د.ب، د.ث، قافية الراء.

[43] - طلب امرئ من قيصر بيزنطة، أن يناصره على مناوئيه، وتوجه إليه سنة 533م، وأقام عنده مدة في بيزنطة وقد أوحت إليه رحلته بهذه القصيدة، وقيل إنه نال من الإمبراطور إمارة فلسطين، وقد أوحت إليه رحلته إلى بيزنطة بهذه القصيدة وفيها أخبار تلك الرحلة. ينظر: الفاخوري، حنّا، مرجع سابق: 330.

[44] - نفسه: 330 وما بعدها.

[45] - نفسه : 335، وما بعدها.

[46] - نفسه: 336، وما بعدها.

[47] – نفسه: 339، الزعيم: الكفيل الضامن، الفُرَانِق: الأسد، أزورا: أعوج الصدر.

[48] - نفسه: 339، وما بعدها، اللحب: الطريق الذي قشر عن وجهه التراب من سير الحوافر عليه، ساف: أشم، العود: المسن من الإبل.

[49] - نفسه: 341، بعلبك مدينة في البقاع اللبناني، وابن جريج في حمص لم يعرفوا قدره.

[50] - هذا البيت "إذ نحن..." يأتي في الديوان ومخطوطاته بعد البيت التالي له، وقدمته ليستقيم المعنى ويصبح لإذا الشرطية جواب هو "أرى" في البيت التالي" أرى أم عمرو..." ينظر: الفاخوري، حنّا، مرجع سابق: 342.

[51] - "قرمل": ملك يمني، ذكره "امرؤ القيس" في شعره. ينظر: مكي، الطاهر أحمد، مرجع سابق: 98، هامش:2.

[52] - نفسه: 342، وما بعدها، نقاد جمع النقد وهو جنس من الغنم صغير الأرجل، الجون: الأسود.

[53] - وهي التاسعة في مخطوطة الأعلم الشنتمري "أبوالحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى" أندلسي من مدينة سنتمارية، ت 476هـ: 1083م، كان عالما بالنحو واللغة حافظا للشعر جامعا، وقد جاء شعر امريء القيس ضمن مجموعة شعرية تشتمل على مجموعة دواوين للشعراء الستة الجاهليين، وهي من أدق النسخ التي نقلت عنها.

[54] - ينظر: الفاخوري، حنّا، مرجع سابق: 87، وما بعدها.

[55] - وهي الثالثة عشرة من مخطوطة الأعلم الشنتمري، سبق وأن أشرت.

[56] - نفسه: 351، تأوبني: رجع إلى، غلس: سار آخر الليل، نكس: عاوده المرض، العيط: الإبل البكر، الأعين: الفحل.

[57] - نفسه: 352، وما بعدها، إني أرى هؤلاء الكواعب لا يحببن من قل ماله وأسن وانحنى ظهره.

[58] - هي الحادية و الأربعون في مخطوطة الطوسي، و السادسة و الخمسون في مخطوطة السكري، و الرابعة و الثلاثون في ابن النحاس، و السابعة في ابن سهل، ينظر: مكي، الطاهر أحمد، مرجع سابق: 101.

[59] - ينظر: الفاخوري، حنّا، مرجع سابق: 328 وما بعدها، الحديد: الجديد، السلام: الحجارة.

[60] - نفسه: 354، الداثر: البالي أي العلامة والأثر، الأحرس: الدهر.

[61] - نفسه:355، العرة: القرحة في الجسم، ونكيب: مصاب بداء النقرس.

[62] - نفسه : 356، اللبيس : الثوب يلبس.

[63] - نفسه : 356، الجرجس : الشمع أو الطين الذي يختم به.

[64] - نفسه : 356.

[65] - نفسه :356.

المصادر والمراجع

1. امرؤ القيس حياته و شعره، د. أحمد مكي، ط4، دار المعارف كرنيش النيل، القاهرة، ج.م.ع.
2. الأغاني أبو الفرج الأصفهاني، د.ط، ساسي.
3. ديوان امرئ القيس، تحقيق وتبويب وشرح و ضبط و بالشاكل وأبياته، حنّا الخوري ط1 دار الجبل- بيروت 1989م.
4. ديوان علقمة الفحل، تحقيق الصقال والخطيب، مراجعة فخر الدين قباوي، ط، دارالكتاب العربي، حلب.
5. ديوان الأعشى، د.ط، دار صار، د.ب، د.ت.
6. ديوان عبيد بن الأبرص، د.ط، دار صادر– بيروت، د.ب،د.ت.
7. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، د.ط، دار المعارف مصر.
8. موسوعة الشعر العربي: الخبر والقصيدة، إشراف خليل حاوي، د.ط، شركة خياط والنشر-بيروت.
9. النابغة الذبياني، عمر الدسوقي، ط1، القاهرة، د.ب، د.ت.
10. النابغة الذبياني مع دراسة القصيدة العربية في الجاهلية، د.محمد زك العشماوي، د.ط دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت د.ب 1988م.
11. نادرة عن تاريخ العرب قبل الإسلام، العالم الثقة عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق: محمد حسين، نشر أول مرة في بغداد عام 1951م.
12. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أديب العرب الشيخ أحمد بن محمد المغربي التلمساني، تحقيق وضبط غرائبه وتعليق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة محمد محي الدين، د،ط - القاهرة، د.ب، 1947م .
13. الشعر والشعراء أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق وضبط، مفيد قميحة، مراجعة وضبط نصه أ. نعيم زرزور،ط2، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان 1985م.
14. تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. شوقي ضعيف،ط7، دار المعارف-مصر.
15. تاريخ الشعر العربي، محمد نجيب البهيتي، د.ط، دار الكتب المصرية، د.ب، د.ن.
16. خزانة الأدب ولب لباب العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، د. ط، مكتبة الخانجي- القاهرة، د.ب.